التماثيل

التماثيل فى الجاهلية

صناعة التماثيل من فروع التصوير ، ولا ريب فى وجودها عند العرب بدليل وجود الأصنام ، وما لهجت به شعراؤهم من تشبيه النساء بالدُّمَى وهى الصور من العاج وغيره . وقد كانت أصنامهم بالغة فى الكثرة مبلغاً لا يستهان به ، فكان منها حول الكعبة المعظمة يوم فتح مكة ثلاثمائة وستون صنما على ما رواه البخارى والمؤرخون[٢٠٠] ؛ عدا ما كان منتشراً فى أماكن أخرى من هذا البلد وسائر أماكن الجزيرة ؛ بل بلغ من استهتارهم بعبادتها أن كل حى من أحيائهم كان فيه صنم ، وغلا كثيرون منهم ، فاتخذوا لهم أصناماً خاصّة فى دورهم . ذكر ابن الكلبى فى « كتاب الأصنام » أنه كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً[٢٠١] .

ولا يخفى أن مثل هذه الكثرة يستبعد معها أن تكون جميعها مجلوبة إليهم مع ما فى بلادهم من مشاق النقل ووعورة المسالك . على أننا غير منكرين نقلهم بضعة أصنام من الشام فى بدء عبادتهم لها ، وهى التى قدم بها عمر بن لُحَىّ حينما أدخل هذه العبادة بينهم* . ولكن ذلك لا يستلزم عدم اشتغالهم بصنعها بعد ذلك ، كما ستراه مؤيداً بالبرهان عند ذكر أسماء المصورين .

وكانت تلك الأصنام أنواعاً : منها ما هو خارج عن بحثنا كالعُزَّى ؛ فإنها كانت ثلاث شجرات من سَمُر عبدوها[٢٠٢] ، وكالأحجار التى كانت تعبد أو يذبح عليها ،

(*) لبعض الباحثين من مؤرخى العصر رأى فى إنكار إدخال عمرو بن لحىّ هذه العبارة بين العرب ليس هذا موضع تفصيل الكلام فيه .

ويسمّونها بالأنصاب [٢٠٣] . وإنما الذى يدخل فى بحثنا ما كان مصوراً أى من نوع التماثيل ؛ كهُبَل ، فإنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب [٢٠٤] . وكذلك الخَلَصَة فإنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج [٢٠٥] . وكَوَدّ فإنه كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد ذُرّ* عليه حُلّتان متزر بحلّة مرتدٍ بأخرى ، عليه سيف قد تقلّده ، وتنكّب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل [٢٠٦] ، ذكر الثلاثة ابن الكلبى فى « كتاب الأصنام » . ويظهر لنا أن إسافاً ونائلة كانا من هذا النوع أخذاً من زعم العرب فيهما أنهما كانا رجلاً وامرأة ثم مُسخا [٢٠٧] . وفى « الروض الأُنُف » للسهيلى فى ذكر القليس وهو بيت للعبادة ، وكان بصنعاء ، أنه كان به صنمان من خشب ، أحدهما تمثال رجل طوله ستون ذراعاً ، والآخر تمثال امرأة ، زعموا أنها امرأته ، وكانوا ينسبون إليهما كل ما يصيبهم [٢٠٨] .

وقد اختلفوا فى تعريف الأصنام فقالوا ما كان من حجارة تعبد فهى الأنصاب ، فإذا كانت تماثيل فهى الأصنام والأوثان ، وقيل المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان فهو الصنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن ، وقيل لا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه ، وقيل الوثن الصنم الصغير ، أو كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة ، كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد . والصنم الصورة بلا جثة وقيل غير ذلك . وقالوا فى تعريف الدُّمْيَة إنها الصنم . وقيل الصورة من الرخام أو المنقّشة من العاج ونحوه ، وقيل بل كل صورة من غير تقييد ، وقد لهجت العرب بتشبيه النساء بها ؛ لأنها يُتَنَوَّق فى صنعها ، ويبالغ فى تحسينها . وفى « شرح التبريزى على الحماسة » نقلا عن أبى العلاء أنها قيل لها ذلك ، لأنها كانت فى أول الأمر تصور بالحمرة فكأنها أخذت من الدم . وقالوا البعيم كأمير ، التمثال من الخشب أو الدمية من الصمغ .

(*) أى نُقش .

وقالوا النَّصْمة الصورة تعبد* . وقالوا الزُّون بالضم الصنم وما يتخذ ويعبد والموضع تجمع الأصنام فيه ، وتنصب وتزيّن .

ومما ذكروه أن بعض هذه الأصنام كانت تماثيل لقوم صالحين ، أُقيمت لهم فى مجالسهم ، وسمّيت بأسمائهم ، فلما طال العهد بأصحابها وتُنوسى أمرها اتخذت آلهة تعبد من دون الله[٢٠٩] كما فى وَدّ وسُوَاع ويَغُوث ويعوق ونَسر التى وقعت للعرب من أصنام قوم نوح عليه السلام †[٢١٠] . قال الطبرى : إن سُوَاعاً كان ابن شيث . وإن يَغُوث كان ابن سُواع ، وكذلك يَعوق ونَسْر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين ، فلم يزالوا هكذا حتى خَلَفَتْ الخُلُوف ، وقالوا : ما عظم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها[٢١١] آلهة †† .

وفى كتاب الحج من « صحيح البخارى » عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قدم أبَى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأُخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاتلهم الله أمَا علموا أنهما لم يستقسما بها قطّ فدخل البيت فكبّر فى نواحيه ، ولم يصلّ » . وقد رواه أيضاً فى غزوة الفتح ، وقال الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » فى شرح هذا الحديث من باب الغزوة المذكورة ما نصه : « وقع فى حديث جابر عند ابن سعد وأبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطّاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة ليمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها ، والذى يظهر أنّه محا ما كان من الصور مدهوناً مثلا وأخرج ما كان مخروطاً » انتهى . قلنا وقد تقدم فى أول

(*) ضبطت فى « القاموس » بفتح فسكون ، وقال شارحه نصّ ابن الأعرابىّ على أنها بالتحريك كالصَّنَمة .

(†) استبعد بعضهم بقاء أعيانها لطول المدة ، وقالوا الذى وقع للعرب أسماؤها فقط ، فسمت بها أصناماً اتخذتها . وعلى هذا القول تكون عربية الصناعة . والذين قالوا ببقاء أعيانها ذكروا أنها كانت مطمورة فانتجثتها العرب أى استخرجتها .

(††) ذكر العلامة الآلوسىّ فى تفسيره « روح المعانى » فى رواية عن بعضهم أن ودّاً كان على صورة رجل ، وسواعاً كان على صورة امرأة ، ويغوث كان على صورة أسد ، ويعوق كان على صورة فرس ، ونسراً كان على صورة نسر ، ثم قال : « وهو مناف لما تقدم أنهم كانوا على صور أناس صالحين ، وهو الأصح » .

فصل التصوير على الجدران ذكر إتلاف عمر — رضى الله عنه — لهذه الصور ، ما كان منها مدهوناً أو مخروطا . وأشار أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم فى لاميته المشهورة إلى ما كان بالصفا والمروة من الصور والتماثيل بقوله :

وبالبيت حق البيت من بطن مكّة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر الأسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل (٢١٢)

أراد وتماثيل فحذف الياء ، وقوله بالحجر الأسود ، فيه زحاف الكف وهو حذف النون من مفاعيلن ، وهو بعد الواو من الأسود . كذا فى « خزانة البغدادىّ » .

وفى « معجم البلدان » لياقوت أنهم لمّا بنوا قصر غُمْدان باليمن جعلوا فى أعلاه مجلساً بنوه بالرخام الملوّن ، وصيروا على كل ركن من أركانه تمثال أسد من شَبَهٍ كأعظم ما يكون من الأسْد ، فكانت الريح إذا هبت إلى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت من خلفه ، وخرجت من فيه ، فيسمع له زئير كزئير السباع (٢١٣) . وقد أطال الهَمْدانىّ فى « الإكليل » فى وصف هذا القصر ، ولكن ما ذكره مكرّرا عن تماثيل الأسود لا يخرج عما فى « معجم ياقوت » ، إلا أنه أنشد فيه لبعضهم :

يسمو إلى كبد السماء مصعّداً ... عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصّب بعمامة ... ومن الرخام منطّق ومؤزّر
وبكل ركن رأس نسر طائر ... أو رأس ليث من نحاس يزأر

وأنشد فيه أيضاً لأبى الصَّلْت* :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... فى رأس غمدان دارًا منك محْلالا
قصر بناه أبوه القَيْل ذو شرح ... فهل يرى أحد مثل الذى نالا
منطّق بالرخام المستزاد له ... ترى على كلّ ركن منه تمثالا (٢١٤)

(*) يمدح به ابن ذى يزن .

ولو أتيح لليمن ما أتيح لمصر من الحفر عن آثارها لـكشف التنقيب فيما نرى عن آثارمدنية هائلة ، لا تقل عن المدنية المصرية ؛ فقد روت صحف الأخبار بمصر سنة ١٣٤٠* أن سيلا عظيما دَهَم وادى مرخة بقرب مأرب فـكشف عن مغاور بها جثث محنطة وتماثيل رجال ونساء بسِحَن يمنيّة وتماثيل على صور البقر مكتوب عليها بالحميريّة ، ونقود من الذهب والفضة وأحجار وفصوص من العقيق حملت إلى أسواق اليمن فاشتراها الهنود .

وفى « الكامل » لابن الأثير(٢١٥) ، و« العبر » لابن خلدون(٢١٦) أن ياسر بن عمرو ملك اليمن الملقب بياسر أنعم ، لإنعامه عليهم ، لما سار غازياً نحو المغرب على ما يذكر أهل اليمن ، بلغ وادياً يقال له وادى الرمل ، فلما انتهى إليه لم يجد فيـه مجازاً لـكثرة الرمل . وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا ، فأمر بنصب صنم من نحاس على صخرة فى شفير الوادى ، وكتب على صدره بالخط المسند ، هذا الصنم لياسر أنعم الحميرىّ ، ليس وراءه مذهب فلا يتكلفن أحد ذلك فيعطب† .

ومما يدل على أنهم كانوا يقيمون بعض التماثيل على قواعد مرفوعة ، أى على نحو ما تقام عليه اليوم ، قول النابغة الذبيانىّ فى المتجرّدة امرأة النعمان :

قامت تراءى بين سِجْفَىْ كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو دُرَّةٍ صدفيّـــــة غواصها بَهِـجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويسجد
أو دُميـــة من مرمر مرفوعة بُنِيت بآجُرّ يشـــاد وقَرْمَد(٢١٧)

قال شارحه الوزير أبو بكر البطليوسىّ « يقول هذه المرأة مثل دمية بنى لها بنيان مرتفع ، وجعلت فيه فهو أصون لها ، وأحفظ لجسمها » .

وحكى المسعودىّ فى « مروج الذهب » فى خبر يسنده إلى منصور الطائىّ أنه رأى قبر حاتم الطائى بتُنْغَة†† ، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدوره التى كان يطعم فيها الناس مكفأة

(*) صحيفة الأهرام فى ١ شعبان ، ٤ رمضان سنة ١٣٤٠ هجرية .

(†) بيّن ابن خلدون شكّه فى وصول ياسر إلى هذا الوادى فى كلامه على مغالط المؤرخين من مقدمته ، ولهذا صدّره فى موضعه من تاريخه بقوله « وزعم أهل اليمن » .

(††) الذى فى نسخة « مروج الذهب » المطبوعة بباريس : بيقّة ، وفى النسخة المطبوعة ببولاق : ببيمة ، والصواب : تنغة . قال ياقوت فى « معجم البلدان » "تنغة" بضم أوّله . والغين معجمة ماء من مياه طيّء ، وكان منزل حاتم الجواد ، وبه قبره وآثاره .

obeikandl.com

ناحيةً من القبر ، وعن يمين قبره أربع جوارٍ من حجارة ، وعلى يساره أربع جوارٍ من حجارة ، كلهن صاحبة شعر منشور ، محتجرات على قبره كالنائحات عليه ، لم يُرَ مثل بياض أجسامهن ، وجمال وجوههن . وربما مرّ المارّ فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجباً بهن ، فإذا دنا منهن وجدهن حجارة[٢١٨] . قلنا والظاهر أن تماثيل هذه الجوارى كانت بالغة الغاية فى الإتقان ، فإن حاكى الخبر مزجه بخرافة ، فزعم أنّ الجنّ مثّلتهن على القبر . ولا عجب من ذلك ، فقد كانت العرب إذا رأت شيئاً مستحسناً أو هالها عمله ، نسبته إلى الجنّ على ماهو مفصل فى أقوال السلف من علمائنا المحققين ، ورحم الله أبا العلاء حيث يقول :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجن

التماثيل الثابتة*

هذا ما كان من خبر التماثيل عند العرب فى الجاهلية ، وبقى منه شىء يذكر بعد ، فلما جاء الإسلام ، وفتحوا المدائن ، ومصروا الأمصار ، وبنوا القصور ، وغرسوا الحدائق ، واستبحروا فى المدنية فشا بينهم اتخاذ التماثيل للزينة فى القصور والبرك ، وتفننوا فى عملها من الحجر والجص والذهب والفضة وغيرها على ما سيأتى تفصيله .

فمن ذلك ما ذكره الخطيب فى مقدمة « تاريخ مدينة السلام » فى وصف قصر المنصور قال : « وكان فى صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا ، وفى صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين ذراعا ، وسمكه عشرون ذراعا ، وسقفه قبّته ، وعليه مجلس مثله فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى أول عقد القبة عشرون ذراعا ، فصار من الأرض إلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس ، وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد . حدثنى القاضى أبو القاسم التنوخىّ ، قال : سمعت جماعة من شيوخنا يذكرون أن القبة الخضراء كان على رأسها صنم على صورة فارس فى يده رمح[٢١٩] » انتهى . ثم ذكر خرافة رواها بعضهم عن هذا التمثال خلاصتها أنه إذا استقبل جهة دلّ ذلك على خروج خارجىّ فى تلك الجهة ، وقد فند ياقوت هذا الزعم فى « معجم البلدان » بقوله :

(*) المراد التى لا تتحرك أعضاؤها بالحيل المتخذة فى تركيبها .

قلت أنا : « هكذا ذكر الخطيب ، وهو من المستحيل والكذب الفاحش ، و إنما يحكى بمثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بلیناس الذى أوهم الأغمار صحتها تطاول الأزمان ، والتخيل أن المتقدمين ما كانوا بنى آدم ، فأما الملة الإسلاميـة فإنها تجل عن هذه الخرافات ، فإن من المعلوم أن الحيوان الناطق مكلّف الصنائع لهذا التمثال ، لا يعلم شيئاً مما ينسب إلى هذا الجماد ولو كان نبيا مرسلا ، وأيضاً لو كان كلما توجه إلى جهة خرج منها خارجي لوجب أن لا يزال خارجيّ يخرج فى كل وقت[٢٢٠] » . ثم ذكر الخطيب أن رأس هذه القبة سقط سنة ٣٢٩ .

وممن ذكر هذه القبة وتمثالها أبو الفرج بن الجوزى فى « مناقب بغداد » ، إلا أنه قال عن رأس القبة إنه سقط سنة ٣٢٧ ، وذكر أنها كانت تاج بغداد ، وعَلَم البَلَد ، ومأثرة من مآثر بنى العباس[٢٢١] . ورأيت فى جزء قديم من تاريخ مجهول عندى فى حوادث سنة ٦٥٣ أن القبة سقطت برمّتها فى تلك السنة ، وكانت مجلساً للخلفاء إلى أيام الرشيد ، ثم هجرت وصارت مأوى للبوم والغربان ، فقال فيها أحد الفقراء ، وكان مقيما فى مسجد المنصور يصف ما آلت إليه حالها :

يا بومة القبة الخضراء قد أنست ... روحى بروحك إذ يستبشع البوم
زهدت فى زخرف الدنيا فأسكنك ال ... ربع الخراب فمن يذمك مذموم

ومثله ما ذكره ابن الأنبارىّ فى « طبقات الأدباء » قال : « قال ابن عائشة : كنا نجلس مع سيبويه النحوى فى المسجد ، وكان شابا نظيفاً جميلا تعلق من كل علم بسبب ، وضرب من كل أدب بسهم ، مع حداثة سنه ، وبراعته فى النحو ؛ فبينما نحن ذات يوم ، إذ هبت ريح فأطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقـة : انظر أية ريح هى ؟ وكان على منارة المسجد تمثال فارس ، فنظر ثم عاد ، فقال : ما ثبتت على حال[٢٢٢] » . ويفهم من ذلك أن هذا التمثال كان يدور على محور ، فإذا اتجه إلى جهـة علم أن هبوب الريح من الجهة التى تقابلها .

ومنه تمثال فرس بفارسه وجميع آلاته من عقيق ؛ ذكره الخالديان فى كتاب « الهدايا والتحف » فى هدية الخليفة المأمون لملك الهند ، وقد تقدم ذكر شىء من هـذه الهدية فى فصل التصوير على الأقداح والأوانى .

وكان المتوكل العباسي شديداً على أهل الذمة ؛ ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين ومائتين ، أنه ألزمهم بأمور في ملابسهم ومراكبهم ؛ كلبس الطيالسة العسلية وشدّ الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب ، وغير ذلك ، وأغربها إلزامهم بأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب . وفي « تاريخ الطبري » أن هذه الصور كانت من خشب مسمرة[٢٢٣] ، وقد ذكر ذلك أيضاً عليّ دده في « محاضرة الأوائل »[٢٢٤] ، وذكره القلقشندي في « صبح الأعشى » غير أنه لم يذكر صور الشياطين . ورأيت في جزء من تاريخ مجهول لسلاطين مصر ، لم يعرف اسمه ولا اسم مؤلفه* ، شيئاً من هذا الخبر ذكر عرضاً في الكلام على إلزام الناصر محمد بن قلاوون أهل الذمة بلبس العمائم الملوّنة ؛ ونص العبارة : « وروى أن المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم وأذلّهم وخالف بين زيّهم وزي المسلمين ، وجعل على أبوابهم الدهان مثال الشياطين » وهي عبارة صريحة بأن هذه الصور كانت مصورة بالدهان ، أي ليست تماثيل من خشب كما في عبارة ابن الأثير والطبري ، ولا يبعد أن يكون بعضها صور بالدهان وبعضها كان تماثيل . ثم رأيت في جزء من تاريخ عندي قديم الخط مجهول شيئاً عن هذه الصور مدة المقتدي ، ونص عبارته : « وآخر من شدد عليهم المقتدي بأمر الله ، وأجراهم على العادة التي كانت في زمن المتوكل ، فعلّق في أعناقهم الجلاجل ، ونصب الصور الخشب على أبوابهم » .

وذكر النويريّ في « نهاية الأرب » ما بناه المتوكل هذا من القصور ، فقال عن المسمى بالبرج : « قالوا وكان البرج من أحسنها ، كان فيه صُوَر عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة غُشِّيَ ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة ، وجعل عليها شجرة من ذهب فيها طيور تصوت وتصفر سمّاها طوبَى ، بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار[٢٢٥] » انتهى .

وقال البحتري من قصيدة يصف بها بركة أنشأها المتوكل وكان بها تمثال دلفين .

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنّحة ... كالطير تنقضّ في جوّ خوافيها

(*) طبع هذا الجزء في ليدن سنة ١٩١٩ م .

لهنّ صحن رحيب فى أسـافلها إذا انحططن وبَهْو فى أعاليهـا
صُور إلى صورة الدلفين يؤنسها منـه انزواء بعينيـه يوازيها(٢٣٦)

أى مائلة مقبلة إلى صورة الدلفين .

ومن ذلك ما ذكره ياقوت فى حرف الدال من « معجم البلدان » قال : « دار الشجرة دار بالدار المعظّمة الخليفية ببغداد من أبنية المقتدر بالله ، وكانت داراً فسيحة ذات بساتين مُونِقة ، وإنما سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة مدوّرة أمام إيوانها ، وبين شجر بستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير ، وفى جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد أُلبسوا أنواع الحرير المدبج مقلّدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد ، فيُظَن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد » . قلنا دار الشّجرة هذه هى إحدى الدور التى دخلها رُسُل ملك الروم فى ملاقاتهم للمقتدر . وقد أطال الخطيب البغدادى فى مقدمة « تاريخ مدينة السلام » فى وصف هـذه الملاقاة ، وما هيأه المقتدر لإظهار أبّهة الخلافة بما يقضى بالعجب العجاب ، ويخرج عن موضوع هذا الـكتاب . وقد جاء فى أثناء كلامه ما نصّه : « ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيار مصوغة من الفضة ، تصفر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهد » .

وأعاد وصفها بعد ذلك فقال : « ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة ، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صافٍ ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات* كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب . وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان ، يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكلّ من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفى جانب الدار يمنة

(*) الشاخات لفظ فارسى معناه الفروع والأغصان والواحد عندهم شاخ .

البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح ، يدورون على خط واحد فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك[٢٢٧] » .

وفى ترجمة عبد الله بن عبد السلام الشهير بابن أبى الرداء المتولى مقياس النيل بمصر أن الخليفة المتوكل على الله أمر أحمد بن محمد الجاسب بعمارة المقياس بالجزيرة (أى جزيرة الروضة بمصر) فحكى ما عمله فى ذلك ، وما كتبه من الآيات الكريمة واسم الخليفة على مواضع من المقياس فى عبارة طويلة ، ساقها ابن خلكان فى هذه الترجمة ، وكان مما عمله ، تمثال سبع أقامه على أحد الحيطان ، ووصفه بقوله : « واتخذت مثال سبع من رخام ركبته فى وجه حائط فويق القناة المطلة على النيل ، على المقدار الذى إذا بلغ الماء ست عشرة ذراعا دخل الماء فى فيه[٢٢٨] » .

وذكر المقريزى فى « خططه » أن باب الصلاة الذى كان يخرج منه أحمد بن طولون من قصره إلى مسجده كان يسمّى أيضاً بباب السباع ؛ لوجود أسدين من جصّ عليه[٢٢٩] . وذكر أيضا فى كلامه على خزانة الجوهر والطرائف والطيب الفاطمية الأجاجينَ القائمة على أرجل على صور الوحوش والسباع . والتماثيل المصنوعة من العنبر ، وكانت كثيرة تبلغ اثنين وعشرين ألف قطعة أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر مَنًّا . وتمثالَ الطاووس الذهب المرصّع بنفيس الجوهر ، وعيناه من الياقوت الأحمر ، وريشه من الزجاج الميناء المجرى بالذهب على ألوان ريش الطواويس . والديكَ الذهب ذا العرف الكبير المفروق المتخذ من الياقوت كأكبر ما يكون من أعراف الديكة . والغزالَ المرصّع بنفيس الجوهر ذا البطن الأبيض المنظوم بالدر الرائع . وتمثالَ البستان المصوغ من الفضة المذهبة طينة من الندّ ، وثمر شجره من العنبر وغيره[٢٣٠] .

وذكر المقريزىّ فى « خططه » أيضاً فى وصف ما كان يعمل بالقاهرة يوم فتح الخليج زمن الفاطميين أنهم كانوا يهتمون اهتماما عظيما إذا دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء ، فكان يعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدّة وافرة ؛ منها ما هو ملبّس بالصندل ، ثم شكل التفاح والأترجّ اللطيف والوحوش مفسّرة الأعين

والأعضاء بالذهب . ثم ذكر أن هذه التماثيل كانت تجعل فى صوان ، وتحمل لأمراء الدولة وأعيانها بعد فتح الخليج عند وصول المائدة من القصر إلى منظرة السكّرة* التى يجلس فيها الخليفة وقت الفتح ، فكان يحمل للوزير ما هو مستقر له عادة ، ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث صوانٍ ، ويخصص منها أيضاً لأولاده وإخوته خارجا عن ذلك إكراما وافتقادا ، ويحمل إلى قاضى القضاة والشهود شدة الطعام الخاص من غير تماثيل توقيراً للشرع ، ويحمل إلى كل أمير فى خيمته شدة طعام وصينية تماثيل ، ويصل من ذلك إلى الناس شىء كثير(٢٣١) . ونقل عن ابن المأمون وصف احتفال لفتح الخليج وقع مدة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٧ يقول فيه عن هذه التماثيل : « وهُيِّئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه وقد وقعت المبالغة فى تعليقها وفرشها وتعبيتها ، وقدّم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من هم الجهات† ؛ من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة والعنبر ، والمرسين المشدود والمضفور عليها المكال باللؤلؤ والياقوت والزبرجد من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة ، جميعها عنبر معجون لخلقة الفيل ، وناباه فضة ، وعيناه جوهرتان كبيرتان فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعليه سرير منجور من عود ، بمتكئات فضة وذهب ، وعليه عدّة من رجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجرّدة والدرق وجميع ذلك فضة ، ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ، وهو على فريسته ، وبقية الوحوش وأصناف تشدّ من المرسين المكال باللؤلؤ شبه الفاكهة »(٢٣٢) .

(*) فى « خطط المقريزى » أن منظرة السكرّة كانت لجلوس الخليفة يوم فتح الخليج وكانت فى برّ الخليج الغربىّ وكان لها بستان عظيم بناها العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمى . قال : وقد دثرت ، ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس قريباً من قنطرة السدّ . وفى « خطط على مبارك باشا » أن محلها الآن المنزل المملوك للأمير أحمد كمال ابن عم الخديو . قلنا وقد هدم المنزل المذكور وبنيت موضعه مدرسة دار العلوم الواقعة من الشمال على شارع المبتديان بالقرب من محطة السيدة زينب إحدى محطات سكة حديد حلوان .

(†) أى نساء الخليفة وهى كلمة تعظيم جروا على التعبير بها عن نساء الخلفاء والملوك خاصة ، وقد يعبرون بها عن نساء العظماء ؛ فإذا قيل جهة الخليفة أو جهة السلطان فالمراد زوجته ، ويعلم من العبارة أن نساء الخلفاء الفاطميين كنّ يرتبن هذه التماثيل فى الصوانى اهتماما بشأن هذا الاحتفال .

وعثروا سنة ١٣٤٥ فى أطلال الفسطاط على تمثال مغنية مصنوع من الشبه تُرى فيه جالسة متربّعة ، وفى يدها دُفّ تنقر عليه ، وعلى رأسها صورة إكليل مرصع ، وفى جيدها عقد ، وفى يدها سواران ، ولها ثلاث جدائل ؛ واحدة مدلاة على ظهرها واثنتان على نهديها . وقد حفظ بدار الآثار العربية بالقاهرة(٢٣٣) ، ويُظَن أنه من العصر الفاطمى .

وفى « المختار السائغ من ديوان ابن الصائغ الطبيب » أن أبا الحسن بن بشر بن عبدون الكاتب أخبره أنه رأى عند الأمير غازى بن أُرتُق* تمثال رمانة أهدى إليه ، وهى من ذهب أحمر وميناء خضراء مرصعة باللؤلؤ ، وفى باطنها حب بلخش ، ولها أربعة أبواب تفتح عن بيوت مملوءة طيبا ، والبيوت وأنواعها خفيّة عمن يراها ، وسأله وصفها فقال :

وخود تحيي الشَّرْب بعد كؤوسهم ... برمّانة من عَسْجد وزبرجد
مرصّعة باللؤلؤ الرطب ظاهراً ... وباطنها حب البلخش المنضّد
وتخفى بيوتاً أربعاً† لا تنالها ... لطافة حس العالم المتوقّد
إذا فتحت أبوابها ظهرت بها ... ودائع طيب فى مخازن عسجد
وكانت كأفلاك السماء نجومها ... ترى فى بروج لا تبين لمهتد(٢٣٤)

ومما يصح إلحاقه بهذه الرمانة ما روى عن المتنبى أنه دخل على أبى العشائر الحسين ابن على بن حمدان ، ورأى فى يده بطيخة من ندّ فى غشاء من خيزران ، وعليها قلادة من لؤلؤ ، فحياه بها ، وطلب منه تشبيهها فقال :

وبنيّة من خيزران ضمّنت ... بطيخة نبتت بنار فى يد
نظم الأمير لها قلادة لؤلؤ ... كفعاله وكلامه فى المشهد
كالكأس باشرها المزاج فأبرزت ... زبداً يدور على شراب أسود(٢٣٥)

(*) اسمه إيل غازى ولقبه نجم الدين ، وهو الذى ملك ماردين سنة إحدى وخمسمائة . ذكره ابن خلكان فى ترجمة أبيه أرتق ، وترجمه سبط ابن الجوزى فى « مرآة الزمان » وقال : توفى سنة ٥١٦ أو ٥١٥ بظاهر ميّافارقين ، ثم حمل إليها ودفن بها . وفى « الكامل » لابن الأثير أنه توفى سنة ٥١٦ .

(†) الوجه « أربعة » ولكن حكى الصبان عن « شرح الكافية » للصفوى أن المعدود إذا قدم وجعل اسم العدد صفة جاز إجراء القاعدة وتركها ، تقول مسائل تسع ورجال تسعة وبالعكس ، ثم قال : فاحفظها فانها عزيزة .

وقال فيها ارتجالا أيضاً :

وسـوداء منظوم عليها لآلئ لها صورة البطيخ وهى من الند
كأن بقايا عنبر فوق رأسها طلوع رواعى الشيب فى الشعر الجعد[٢٣٦]

وفى « لطائف المعارف » للثعالبيّ أن المتوكل لما أعذر* ابنه المعتز ، احتفل فى الدعوة وجلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ، ومدت بين يديه الموائد مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور[٢٣٧] . وفى « مطالع البدور » وصف مفصل لهذا الإعذار جاء به أن هذه التماثيل عملت من العنبر والمسك والكافور على مثل الصور ، فمنها ما كان مرصعاً بالجوهر مفردا ، ومنها ما كان عليه ذهب وجوهر[٢٣٨] . وكذلك فعل صاحب حلب الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، لما ولد له ولده الملك العزيز من ضيفة خاتون بنت عمه العادل سنة ٦١٠ . قال ابن الفرات فى « تاريخ الدول والملوك » : إنه احتفل لذلك احتفالا كبيرا ، وأمر بإحضار شىء كثير من الفضة والذهب ، وأمر الصوّاغ ألا يتركوا شكلا ولا صورة من سائر الصور إلا ويصورون مثلها ، فصاغوا من ذلك ما وزن بالقناطير سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغير ذلك[٢٣٩] .

ومثله ما ذكره محمد بن داود المقدسى† فى حوادث سنة ٩٩٠ عما عمل فى ختان ابن درويش باشا والى دمشق فى عصره ، وهو شىء يسمى النقل عملوه بجامع المصلّى ، وبجامع إيلخان خارج محلة القراونة ، وبجامع التوبة ، وحُمل يوم الأحد رابع عشر شوال ، وخرج للفرجة عليه جميع أهل دمشق رجالا ونساء ، لم يتخلف أحد ، وهو يشتمل على أربع عشرة قلعة من الورق المحشو بالبارود ، وأربع عشرة فرسا ، وأربعة عشر عفريتاً كذلك . وعلى صور طيور ووحوش وكلاب وغير ذلك . وعلى قصر عظيم من الشمع الملون المشتمل

(*) أعذر الغلام : ختنه . وأعذر للقوم : عمل طعام الختان .

(†) كتب إلىّ بهذه العبارة صديقى الأستاذ السيد محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق . وقال إنه نقلها من كتاب حوادث من سنة ٩٨٥ إلى سنة ١٠٠٦ اطلع عليه بخط المقدسى المذكور على ما يذكر .

على صورة أنواع الفواكه والبقول والأزهار والأطيار وغيرها . كل ذلك من الشموع المصبّغة والتذهيب والتفضيض . وكان ارتفاعه على علو الجملون الذى بجامع المصلى ، بحيث لم يتأت نقله منه و إخراجه إلا بعد فك الجملون المذكور وهدم قوس أحد أبواب الجامع المذكور ، وهدم مواضع متعددة فى طريقه إلى دار السعادة ، وهدم الحائط الشرقى من باب دار السعادة أيضاً حتى أدخل ، وكان لهذا النقل يوم مشهود ، ثم فى اليوم الثانى منه نقل النقل الذى صنع بجامع محلة القراونة وبجامع التوبة ، وهو يشتمل على قصرين عظيمين من الشمع أيضاً : أحدهما أطول من القصر المقدم بنحو أربع أذرع والآخر دونه مشتملين على ما تقدم ، وعلى صور أنواع الحيوانات من السكر من الخيل والجمال والفيلة والسباع والطيور وغيرها ، كل ذلك من السكر المعقود ، وعلى النقول الملبسات بالسكر أيضاً ، ثم أقاموا نحو سبع ليال يحرقون الحرائق بالبارود بدار السعادة ، وكل ذلك من الإسراف المحرم . انتهى بنصه .

وفى « نشوار المحاضرة » للتنوخى : « وشرب أبو القاسم بن أبى عبد الله البريدى بالبصرة ، على ورد بعشرين ألف درهم فى يوم واحد على رخصته هناك ، واسترخاص من السلطان لما يشتهيه ، وطرح فيه عشرين ألف درهم خفافاً وزنها عشرة آلاف درهم ، وشيئاً كثيراً من قطع الند المثاقيل اللطاف وقطع الكافور اللطاف والتماثيل ولعب به شاذ كلى* ، وانتهب الفراشون الورد مع ما فيه من الدراهم والطيب »(٢٤٠) .

وفى « أخبار مصر » لابن ميسّر فى ذكر ما وجد من الذخائر فى خزائن الأفضل ابن أمير الجيوش وزير الآمر الفاطمى بعد مقتله أنه كان بينها « لعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة »(٢٤١) . قلنا وهو من غريب ما يروى من ضروب التنعم والترفّه . وذكر ابن خلدون فى « تاريخه » من الذخائر التى وجدت للأفضل

(†) وهو لفظ فارسى مركب من (شاد) بالدال المهملة ، وينطق به ذالا معجمة لوقوعها بعد حرف من أحرف العلة على القاعدة عند بعضهم ومعناه الفرح والسرور ، ومن (كل) بضم الكاف الأعجمية التى كالجيم المصرية ومعناه الورد ، والمراد هنا السرور بالورد ، والظاهر أنه نوع من اللهو واللعب كان يعمل سروراً بالورد ، ولم نقف على تفصيل فى وصفه .

« دكة عاج وآبنوس محلاة بالفضة عليها عَرَم* مثمن من عنبر زِنتُه ألف رطل ، وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين مرجاناً ومنقار زمرداً ، وعيناه ياقوتتان كان ينصبها فى بيته ويضوع عَرْفها فيعم القصر ، وصارت إلى صلاح الدين »(٢٤٢) . والذى فى « تاريخ الدول والملوك » لابن الفرات ، عند ذكره ذخائر الأفضل أن هذه الدكة وما عليها من عمل الخليفة الآمر ، ونص عبارته : « ووجد من العود والعنبر والمسك ما أذهل الناس ؛ فأما العنبر فإنه كثر بعين الخليفة ، فأمر بعمل دكة آبنوس وعاج وحلاها بالفضة ، ولبس عليها العنبر شكل هرم مثمن وزنه ألف رطل بالمصرى ، وعمل على الهرم ببغاء من الذهب ورجليها من المرجان ، ومنقارها من الزمرد ، وعينيها ياقوتتين حمر ، ونصبها على الهرم المذكور على الدكة بالمجلس بقاعة الذهب ، فكانت الريح تخرج ريحها إلى القاعة ولا سيما أيام الصيف ، ولما أحيط على القصر فى أيام صلاح الدين يوسف وكسرت العنبرة المذكورة للبيع ووزنت على من تسلمها ، فكان وزنها ألف رطل بالمصرى لم تنقص غير ثلاثين رطلا » . انتهى بحروفه .

وفى « نخبة الدهر » لشيخ الربوة أن الملك المنصور قلاوون لما كان بدمشق سنة اثنتين وثمانين وستمائة أحضر إليه من المدرسة الجوهرية مائدة ذهب وزنها ثمانية أرطال وربع بالدمشقى ، وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان† من ذهب فى منقار كل واحدة لؤلؤة بقدر الحمصة ، وفى منقار الدجاجة درة بقدر البندقة . وفى وسط المائدة سكرّجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التى للدراهم السوقى ، لا الكبير ؛ مملوءة حبات من الدر ، قيل إن الملك الناصر صاحب حلب أودعها لنجم الدين الجوهرى فأكنزها بدهليز مدرسته فوشى بها إلى الملك المنصور جارية من جوارى الجوهرى ، وكان على جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما فى المائدة(٢٤٣) .

وذكر العليمى فى « المنهج الأحمد »(٢٤٤) عن أحمد بن على العلثى أحد الزهاد أنه كان

(*) أى كومة من عنبر ، وأصل العَرَم بفتحتين الكدس من الحبّ المدوس يجعل كهيئة الأزج ليذرى .

(†) كذا بالأصل .

عفيفاً لا يسأل أحداً شيئاً ، ويتقوّت من عمل يده بتجصيص الحيطان ويتنزه فى صناعته عن عمل النقوش والصور . ثم ترك صناعته بسبب دخوله مرة دار السلطان للعمل مع الصناع ، وكان فيها صور من الإسفيداج ، فلما خلا كسرها كلها ، فاستعظموا ذلك منه ، وانتهى خبره إلى السلطان وأعلموه بصلاحه ، فأمر بإخراجه ، ولم يعاقبه .

وذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٥٩٣ من « مرآة الزمان »[٢٤٥] ، وأبو شامة فى « الذيل على الروضتين »[٢٤٦] قدوم الأمير حسام الدين أبى الهيجاء السمين إلى بغداد واحتفال الخليفة بلقائه ، فحكيا عنه أنه كان ذا رأس صغير وبطن كبير جدا يبلغ رقبة بغلته وهو راكبها ، وأنه لما اجتاز بمحلة الحربية رآه رجل كواز فضحك من هيئته وعمل فى ساعته كوزاً من طين على صورته ، وعمل أهل بغداد بعده كيزاناً على هذه الصورة ، وسموها أبا الهيجاء السمين ، وكانت وفاة هذا الأمير سنة ٥٩٤* .

ومن هذا النوع تماثيل الشارات المسماة بالرنوك فى الدولتين التركية والجركسية بمصر ، وقد كانت كثيرة نذكر منها تمثال أسد من حجر بدار الآثار العربية[٢٤٧] ، عثروا عليه فى قناطر خليج أبى المُنَجَّى[٢٤٨] † ، وهى من آثار الظاهر بيبرس ، وقد قدمنا أن شارته كانت على صورة أسد . ولما بنى قنطرته على الخليج القاهرى أقام عليها أيضاً أربعة أسود من الحجارة على كل جانب اثنان ، فسميت لذلك بقناطر السباع ، وكانت عالية مرتفعة ، فلما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى فى موضع بستان الخشاب†† حيث موردة

(*) ذكر ابن الأثير فى « الكامل » قدومه إلى بغداد ، وقال إنه كان أميراً كبيراً من أمراء مصر ، فارق بنى أيوب وقدم بغداد لخدمة الخليفة وذكر أنه كان كثير السمن ، ولكنه لم يتعرض لعمل الكيزان على صورته .

(†) أبو المنجى رجل من اليهود ، كان مشارفا لأعمال الخلجان بمصر مدة الفاطميين ، وهو جدّ بنى صفير الأطباء اليهود . شرع فى حفر هذا الخليج سنة ٥٠٦ وأقام فى عمله سنتين . والقناطر التى عليه من بناء الظاهر بيبرس ، ثم جددها قايتباى لمّا تداعت ولم تزل باقية إلى الآن بعناية لجنة الآثار العربية ، وهى شمالى القاهرة يراها المسافر منها فى القطار عن يساره بين شبرا وقليوب .

(††) موضعه الأرض الواقعة تجاه القصر العالى وقصر العينى المتخذ الآن مستشفى ومدرسة للطب ، وكان القصر العالى من قصور والى مصر إبراهيم باشا المطلة على النيل ، ثم صار لولده الخديو إسماعيل باشا وبيع بعد موته فهدم وقسمت أرضه وبيعت قطعا بنيت عليها القصور الفخمة ، ولم تزل هذه الجهة تعرف بجهة القصر العالى .

البلاط ، وتردد إليه كثيراً صار يمر عليها فى نزوله من قلعة الجبل ، فتضرر من علوها ، وشكا إلى الأمراء تألم ظهره ، وإنما أشاع ذلك ليزيلها ؛ لأنه كان يكره النظر إلى آثار من قبله ، ويحب ألا ينسب شيء إلا إليه ، وكان كلما مر بها رأى الأسود — وهى شارة الظاهر بيبرس — فأحب إزالتها بدعوى تجديد القنطرة فهدمها ، وأعادها أوسع مما كانت بعشر أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول ، ولكن لم يتم له مقصوده ؛ لأن العامة علمت بما يرمى إليه ، وتحدثت به فاضطر إلى إعادة الأسود عليها كما كانت . ثم حدث أن رجلا من الصوفية كان يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر* ، سولت له نفسه القيام بتغيير أشياء رأى أنها من المنكرات ، فشوه صور هذه الأسود سنة ٧٨٠ كما فعل بوجه صنم الأهرام المعروف عند العامة بأبى الهول . حكى ذلك المقريزى وتمثل فيه بقول القائل :

وإنما غاية كل من وَصَلْ صيد بنى الدنيا بأنواع الحيل(٢٤٩)

وفى ترجمة الشيخ ولى الدين أحمد بن محمد بن أحمد المحلّى الشافعى من « الضوء اللامع » أنه كان ينكر الشخوص التى بهذه القناطر ، وبلغ الظاهر جقمق عنه أنه يروم هدم هذه القناطر والربوع التى تسكنها النساء الخواطئ ، ومنع الناس من استتباع رقيقهم وتكليفهم ما لا يطيقونه من الجرى خلف دوابهم ، فحبسه وقتاً لذلك ، وكانت وفاته سنة ٨٨٢(٢٥٠) .

وقد شاهد الشيخ العلامة عبد الغنى النابلسى سبعين من هذه السباع ، وذكرها فى رحلته « الحقيقة والمجاز » ، فقال فى وصف ما رآه بالقاهرة : « فمررنا على المكان المسمى بقناطر السباع ، فوجدنا هناك صورة سبعَيْن اثنين من الحجارة على قناطر لها بالخليج استدارة » . قلنا والقناطر المذكورة هى التى كانت تسمى فى عصرنا هذا بقنطرة السيدة

(*) ترجمه تقى الدين ابن قاضى شهبة فى تاريخه فيمن توفى سنة ٧٨٦ فقال : « محمد بن صديق ابن محمد التبريزى المصرى » ويعرف بصائم الدهر أحد الصوفية بخانقاه سعيد السعداء ، قال بعض المؤرخين : كان يصوم الدهر ويفطر دائما على حمص مصلوق بغير أدام ، أقام على هذه الطريقة نيفا وأربعين سنة ، ولباسه الملحم الأزرق وعلى رأسه مئزر أسود ، ولا يلبس البياض إلا لصلاة الجمعة . وكانت أوقاته مقسومة ؛ وقتاً للصلاة ، ووقتاً للقراءة ، ووقتاً للمطالعة ، وكان مثابراً على إنكار المنكر جهده وطاقته ، وهو الذى طمس وجوه السباع التى على قناطر السباع وشوّه وجوهها فأزال عنها العيون وغيرها . توفى فى رمضان ودُفن بمقابر الصوفية » . انتهى .

زينب ، لوقوعها أمام المسجد الزينبي ؛ ولما جدد والى مصر عباس الكبير هذا المسجد جددها ، ثم خربت لما ردم الخليج سنة ١٣١٤[٢٥١] .

ومن هذه التماثيل طائر المظلة التى كانت ترفع على سلاطين مصر فى المواكب وتسمى بالقبة والطير[٢٥٢] ، وإليها يشير أحد شعراء ذلك العصر بقوله فى وصف الأشجار والأطيار :

لِمْ لا أقضى العمر فى دوحةٍ يفتننى منظرها الناضر
وحيثما سرت بأرجائها تظلنى القبة والطائر

وذكرها قطب الدين الحنفى فى « الإعلام بأعلام بلد الله الحرام » ، فى كلامه على رسوم الدولة الجركسية ، فقال « ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة كالچَتَرْ* ، وفى وسط ذلك صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة[٢٥٣] » . ووصفها المقريزى فى « خططه » بقوله : « ويقال لها الچتر ، وهو أطلس أصفر مزركش ، من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر ، وهو راكب فرسه إلى جانب السلطان[٢٥٤] » .

وفى « ذخيرة الأعلام » لأحمد بن سعد الدين العثمانىّ الغمرىّ[٢٥٥] أن سلطان مصر كان إذا ركب نشرت عليه الأعلام ، وتسمى بالعصائب ، وتتخذ من الديباج الأصفر مزركشة وتكتب عليها ألقابه بالذهب ، وترفع فوق رأسه قبة من خيزران دقيق مكسوّة بالحرير الأصفر المرقوم بالذهب الأحمر ، وفوقها طائر من فضة مطلى بالذهب على شكل الهدهد ، ويحملها على قضيب أمير الأمراء ، ويكون بجانب السلطان لا وراءه ، ويزعمون أنهم اتخذوا هذا الشعار عن نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام ، لما كان يسير به البساط ، وتعقد الطير عليه قبة وفوقها الهدهد ، ويمشى بجانب السلطان سائسه ، يحمل الغاشية وأمامه الجنود والطير داريّة ، وطيورهم بأيديهم ، ويمشى أمامه النفير ووراءه الطبلخانات ، ويركب السلطان هذا الموكب كل يوم سبت وأربعاء وجمعة . وكان كافور الإخشيدى لما كان وزيراً يركب على بغلة ببرذعة عليها سجادة ، فلما تولى إمارة مصر لم يغير مركوبه . انتهى .

(*) الچتر بفتح الجيم الأعجمية وسكون المثناة الفوقية كلمة فارسية معناها المظلة .

وذكر ابن بطوطة أنه رأى مثل هذا التمثال على مظلة سلطان مقدشو آخر بلاد زيلع ، فقال فى وصف رجوعه من صلاة الجمعة : « وتوجه إلى منزله ماشياً وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة طائر من ذهب »[٢٥٦] . ومنه يعلم أنه لم يكن خاصا بمظلات سلاطين مصر .

ومنها حمالات الأزيار التى كانوا يتخذونها على صورة سلحفاة برأس أو برأسين ، ويزخرفونها بالكتابات الكوفية وصور من الحيوان خيالية[٢٥٧] .

ومنها تماثيل البرك ، وكانوا يقيمونها فيها و يسلطون الماء عليها فيصب منها إلى البركة ، وفى أحد هذه التماثيل يقول عمر بن مسعود الحلبى المعروف بالمحّار ، وكان التمثال من نحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه :

وشخص على ساقه قائم مشير بساعده الأيمن
له صورة حسنت منظرا على بدن صيغ من معدن
يكاد يحدث جلّاسه ولكن به خرس الألكن
إذا بث من صدره سره فتسبقه أدمع الأعين
ولم يبك حزناً على نازح ولم يصبُ شوقاً إلى موطن
صبور على الحر والبرد لم يُسرّ بحال ولم يحزن[٢٥٨]

وذكر الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى فى حوادث سنة ٨٦٥ من تاريخه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم »[٢٥٩] تمثال باز ، كان مقاماً على حوض بقلعة القاهرة ، وذلك فى كلامه على حضور والده* من دمشق ، ومقابلته للسلطان الظاهر خشقدم عقب توليه الملك هذه السنة ، فقال : « وفيه أعنى هذا اليوم الذى هو يوم الثلاثاء حادى عشرى† شهر رمضان المذكور ، ركب الوالد ، وطلع إلى القلعة إلى الظاهر خشقدم يهنئه بإيتاء الله تعالى الملك له ، فأنس به وترحّب ، وقال له : قد كان كعبك مباركا علينا ، وحصلت لنا

(*) اسم والده خليل بن شاهين الظاهرى ، وكان من الأمراء الفضلاء ، تولى عدة ولايات منها نيابة الاسكندرية ونيابة ملطيّة ، وله عدة مؤلفات منها « زبدة كشف الممالك » المطبوع بباريس وتوفى سنة ٨٧٣ . وتوفى ولده عبد الباسط المذكور سنة ٩٢٠ على ما فى « تاريخ ابن إياس » (ج ٣ ص ٦٣) .

(†) فى الأصل (عشرين) باثبات النون مع الاضافة .

السلطنة بقدومك علينا ، فإن الوالد كان قد اجتمع به قبل ذلك غير مرة وهو على الأتابكية . ثم أخذ فى مكالمته وممازجته معه ، واتفق أن كان بالدهيشة ، وكان على فسقية الدهيشة هيئة باز مصور من نحاس مموه بالذهب صورة عجيبة فى غاية الحسن فى فنه ومنظره ، فسأل السلطان الوالد عن جواز تبقيه هذه الصورة بهذا المكان ، وفى جواز تصوير ذلك . وكان بالمجلس أيضاً بعض ممّن يدعون العلم بنفسه ، وينتسب إليه ، فبدر بأن قال : هذا عرف وعادة جرت بذلك بأمر الملوك الأقدمين ، فأجاب الوالد بأن هذا مما يحرم إبقاؤه على ما هو عليه ، ولا سيما فى مجلس الإمام الأعظم ، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصّورة ، على ما ورد فى « صحيح البخارى » ، فأعجب السلطان ذلك ، ثم أمر به فنحى فى الحال » . انتهى بنصّه .

ويلتحقُ بهذه التماثيل ما كانوا يصورون به جآجئ السفن من أشكال الحيوان وجوارح الطير وغيرها ، كما فعل الأمين بن الرشيد بتصوير حراقاته* الخمس بصورة الأسد والدلفين والعقاب والحية والفرس وإنفاقه عليه مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب†
فإذا ما ركابه سرن برًّا ... سار فى الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو ... أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ... ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث يمرّ مرّ السحاب
سبّحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زَوْر ومِنْسَر وجناحيـ ... ـن تشق العُباب بعد العُباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب (٢٦٠)

(*) الحراقة بفتح الأول وتشديد الراء كانت تطلق على نوع من السفن بالبصرة ، فيها مرامى نيران يرمى بها العدو ، وعلى السفينة الخفيفة المرّ على ما فى كتب اللغة . ويؤخذ من عبارات المؤرخين وأقوال الشعراء أنها أطلقت بعد ذلك على السفن ذات الحجَر والمرافق التى يركبها العظماء ، فهى شبيهة بما يسمى بمصر « بالذهبية » ويصح إطلاقها أيضاً على ما نسمّيه (باليخت) .

(†) صاحب المحراب سليمان عليه السلام .

وقال من أحرى :

قد ركب الدلفين بدر الدجى　　مقتحماً للمـــاء قد لجّجَا*
لم تر عيني مثـله راكباً　　أحسن إن سار وإن عرّجا
وإذا اســـتحثته مجاذيفه　　أعنق فوق المـاء أو هملجا** (٢٦١)

وقال من رجز :

ألا ترى ما أعطى الأمينُ　　أعطى ما لم تره العيون
ولم تـكن تبلغه الظنون　　الليث والعقاب والدلفين (٢٦٢)

وإذا تركنا المشرق وتماثيله ، وانتقلنا إلى الأندلس موطن الحضارة العربية ، ومعهد التفنن والاختراع ، لرأينا عجباً واستجلينا بدعاً ، واستدللنا من خبر القوم فى تصورهم وجنانهم على أنهم كانوا أشد مغالاة بها ، وأحرص على الاستكثار منها من أهل المشرق ، وحسبنا ما أقامه الناصر من التماثيل فى الزهراء ، وما أقيم منها فى حمراء غرناطة الباقيــة إلى اليوم تعارك الدهر . قال المقرّى فى « نفح الطيب » (٢٦٩) فى كلامه على الزهراء : « إن أحمد اليونانى جلب لعبد الرحمن الناصر من الشام ، وقيل من القسطنطينية حوضاً صغيراً أخضر منقوشاً بتماثيل الإنسان ، لا قيمة له لفرط غرابته وجماله† ، فنصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى بالزهراء ، المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصّعة بالدرّ النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشـاهين وطاوس ، ودجاجة وديك ، وحدأة ونسر†† . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج المـاء من أفواهها » (٢٦٣) .

(*) لجّج خاض اللجّـة ، أى معظم المـاء .

(**) الهملجة حسن سير الدابة فى سرعة ، والهملاج من البراذين هو ما نسميه الآن بالرهوان .

(†) لا ريب فى أن هـذا الحوض المصوّر ليس من صنع العرب ، والقصد من ذكره ، ذكر التماثيل التى عملت بدار الصناعة بقرطبة وأقيمت عليه .

(††) الذى عده ثلاثة عشر تمثالا لا اثنى عشر كما ذكر أولا ، وقد ذكر هذه التماثيل فى كتابه « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » ، فعـد منها أحد عشر وقال : والثانى عشر لم يحضرنى اسمه الآن .

وقال فى موضع آخر : « وفى صدر هذه السنة ، كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها ، وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربىّ قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطلىّ بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان ، لهما وبيص شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد ، فيمجّه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه ، وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجَنَباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك (٢٦٤) .

وكان بحمّام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل جلاها لنا أحد شعراء الأندلس بقوله :

ودميــة مرمر تزهو بجيد   تناهى فى التورّد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا   ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونَعْلَم أنها حجر ولـكن   تتيمنا بألحــاظ مراض (٢٦٥)

وقال التُّطيلى * الأعمى فى أسد يقذف الماء من فيه :

أســـــد ولو أنى أنا   قشه الحساب لقلت صخره
فـكأنه أســد السما   ء يمج من فيـه المجرّه (٢٦٦)

وقال الوزير أبو جعفر الوقشى ، وقد شرب على صهريج فاختنق الأسد الذى يرمى الماء ، ونفخ فيه رجل أبخر فجرى :

ليث بديع الشكل لا مثل لَهْ   صيغت من الماء له سلسله
يقذف بالماء على جنبه   كأنه عاف الذى قبّـــله (٢٦٧)

ولعمرى لقد أبدع الوزير فى الوصف ، فجعل اشمئزاز الأسد من تقبيل الرجل الأبخر علّة رميه بالماء على جنبه ، كما يعاف المرء الشىء فيلوى وجهه عنه ، ولولا اختناقه بشىء دخل فى فيه مع الماء ، وتسخير هذا الرجل له ، لما تهيأ للوزير وصف هذا الشكل بمثل هذا التعليق المونق .

(*) نسبة إلى تطيلة بضم فكسر ، بلد غير طليطلة .

وخرج ابن قزمان شيخ الصناعة الزجلية بالأندلس إلى متنزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال على طريقتهم الملحونة فى الزجل ، أى بتسكين أواخر الكلم :

وعريش قد قام على دكان بحال رواق*
وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق
وفتح فَمُو بحال إنسان به فـــواق
وانطلق من ثمّ على الصفاح وألقى الصياح (٢٦٨)

وكان فى قصر المعتمد فيل من فضة على شاطئ بركة يقذف الماء ، وهو الذى يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من قصيدة :

ويفرغ فيه مثل النصل بدعٌ من الأفيال لا يشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلداً تراه قلّمـــا يخشى هزالا (٩٦٢)

وقال يحيى بن هذيل فى غزالة من نحاس ترمى الماء فى بركة :

عنّت لنا من وحش وجرة ظبية جاءت لورد الماء ملء عنانها
وأظنّها إذ حدّدت آذانها ريعت بنا فتوقّفت بمكانها
حيّت بقرنى رأسها إذ لم تجِدْ يوم اللقاء تحيّـــةً ببنانها
حنّت على الندمان من إفلاسهم فرمت قضيب لجينها لحنانها
لله در غزالة أبدت لنـــا در الحبـــاب تصوغه بلسانها (٢٨٠)

ولما أراد أحد سلاطين مراكش فى القرن الثانى عشر إبرام هدنة مع الإسبان ، ندب لذلك السيد أحمد بن محمد بن غزال الفاسى ، وبعثه سفيراً للملكهم سنة ١١٧٩ ، فكان مما شاهده بإشبيلية ووصفه فى رحلته « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد »(٢٧١) ، دار عربية كبيرة كانت لم تزل قائمة على عهده يقول فى وصفه لها ولجنتها : « وبأعلى السور تصويرة آدمى ، وبيده بوق متصل بفيه يزعق فيه ولا يسكت إلا إذا انقطع الماء ، وبهذا الروض عدة صهاريج استوعب جميعها تصاوير يدفق الماء من فيها » .

(*) يريد مثل الرواق ، وكذلك قوله بحال إنسان ، أى مثل إنسان به فواق ، وهو شخوص الريح من الصدر .

وقس على الأندلس سائر بلاد المغرب ، وما كان فى قصورها من الصور والتماثيل ؛ كالدار التى بناها المنصور بن أعلى الناس* ببجاية ، واتخذ فى بستانها بركة عليها أشجار مذهبة ، ترمى أغصانها الماء ، وعلى حافاتها أسود مذهبة قاذفة بالماء أيضاً ، وفيها يقول ابن حمديس :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضار جسومها ... وأذاب من أفواهها البلّورا
أُسْـــد كأن سكونها متحرك ... فى النفس لو وجدت هناك مثيرا

إلى أن يقول فى الأشجار :

وبديعـة الثمرات تعبر نحوها ... عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبيـــة نزعت إلى ... ســـحر يؤثر فى النهى تأثيرا (٢٧٢)

إلى آخر ما قال فى وصفها :

وله من قصيدة أخرى يصف فيها بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود :

خصّت بطائرة على فنن لهـا ... حسنت فأفرد حسنها من ثان
قسّ الطيور الخاشعات بلاغة ... وفصـاحة من منطق و بيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان

إلى أن يقول :

وزرافة فى الجوف من أنبوبها ... ماء يريك الجرى فى الطيران
وكأنما ترمى السماء ببنـدق ... مستنبط من لؤلؤ وجمـــان
فى بركة قامت على حافاتها ... أُسْـد تذل لعزة السلطان (٢٧٣)

وهى طويلة نكتفى منها بهذا المقدار .

(*) أورده ياقوت فى « معجم البلدان » بلفظ (علناس) ، ولعله اسم بربرىّ استصوبوا تغييره بأعلى الناس ، أو يكون أعلى الناس هو الأصل ، وحرفتـه العامة بالمغرب ، فجرى ياقوت على ما هو مشهور بينهم . وممن ذكره بلفظ (علناس) ابن الأثير فى « الكامل » مكرراً فى عدة مواضع . والذى فى « نفح الطيب » (أعلى الناس) .